ظالم مشهور

الحمد لله الذي خلق كل شيء وإليه ترجعون ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون، يخرج الحيّ من الميت ، ويخرج الميت من الحيّ ، ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ، وإمام المتقين ، وقائد الغرِّ الميامين ، فصلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيراً .....

أما بعد أيها المسلمون: لطالما يتحدث الناس عن الظلم والظالمين ، ويستذكرون من قصصهم في زمن الغابرين ، فيذكرون عتاولة الشر والظلم في العالمين ، كفرعون وهامان وقارون ، وأبي جهل وأميّة بن خلف ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين ، أما اليوم ، فسأحدثكم عن ظالم مشهور بظلمه ، حتى قيل: إنه وحيد عصره ، وفريد زمانه ، وذلك لشدة ظلمه وبغيه على الناس ، بل أصبح اسمه رمزاً للظلم والظالمين ، ذكره الذهبي في السير ، وقال عنه: نبغضه ولا نحبه ، ونعتقد أن بغضه من أوثق عرى الإيمان ، ثم استدرك قائلاً: له حسنات أمثال الجبال ، ولكنها مغمورة في بحار سيئاته، وذكره ابن كثير ، فقال عنه: فلان ابن فلان ، قبحه الله ، هكذا يحكي الناس سيرته وسلوكه ، ولا يتورعون عن ذمه وسبه ، لأنه جنى على نفسه ، بما سلب من أموال ، وبما سفك من دماء، حتى قيل: أنه

كان يظلم الناس ويذبحهم كما يذبح الدجاج ، ولكن ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (إبراهيم:٤٢) لقد أخطأ هذا الظالم درب السالكين ، وظلم نفسه وأمته وإخوانه ، ولكنه لا يستطيع أن يظلم ربه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (البقرة:٥٧)، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾(النحل: ٣٣) سفك هذا الظالم الدماءالزكية، والأنفس البرية ، حجر على العالم علمه ، وعلى المفكر فكره، وعلى الأديب أدبه ، وعلى المبدع إبداعه ، إن الظلمة قد لا يقتلون الأنفس ، وإنما يقتلون المبادئ والطموحات والإبداعات والمواهب ، ولذلك يستحقون أن يعذبهم الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾(آل عمران : ٢١) .

قال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك ، في العذاب الأليم كل الظالمين، وكل من قتل: رسالة الناس، ودعوة الناس ، وعلم الناس ، وإبداع الناس، وحجر عليهم رسالتهم ، ودعوتهم ، وإبداعهم ، وأفكارهم ، إن هذا الظالم الذي نتحدث عنه اليوم ، قتل كل الأصوات ، إلّا صوتاً واحداً يمدحه ويمجده ويثني عليه ، وقطع الأيادي كلها ، إلّا يداً واحدة تصفق له وتسبح بحمده ليل نهار ، هذه الأمة لم تعرف ظالم مثله ، لأنه قتل العلماء، وعادى الأولياء ، وصاحب السفهاء والأراذل ، مشكلة هذا الظالم ، أنه لا يستمع إلى نصيحة الناصحين ، ولا يقبل دعوة الداعين ، إذًا من هو هذا الظالم الأثيم؟ لعلكم عرفتموه ، أو سمعتم به بين العالمين، يقول عن نفسه قبل موته بشهر واحد: رأيت في المنام أن الله عذبني بكل نفس قتلتها مرة واحدة، إلّا سعيد بن

جبير ، فقد عذبني به على الصراط سبعين مرة، أتدرون أيها المسلمون ، ماذا فعل هذا الرجل بأمة محمد ﷺ ، قتل منها الآلاف ، وسجن الآلاف، وظلم منها الآلاف ، وأظلمت الدنيا في عهده واسودّت ، يأتيه الشيخ الكبير فلا يوقره، ويأتيه الناصح الأمين فلا يسمع له، إنه الحجاج بن يوسف الثقفي ، أكبر ظالم في الأمة، أراد الله -سبحانه وتعالى- أن يؤدب هذه الأمة بأمثال هؤلاء الظالمين والمجرمين، بسبب ظلمها وعتوها عن أمر ربها ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾(سبأ:١٧) كان الحجاج يقرأ القرآن، ويتحدث عن العدل والعادلين ، ولكنه مع ذلك ، كان سيفه مُشرعاً في وجه المخالفين له والمعارضين ، كان لا يتورع عن قتل الناس وأخذ حقوقهم، أتى إلى الحرم يوماً يؤدي العمرة ، وكثير من الظلمة اليوم ، يفعلون ما يفعلون، ويرتكبون أبشع الجرائم والمنكرات ، ثم يذهبون إلى مكة ، فيطوفون بالبيت سبعاً ، ويظنون بذلك أنهم رجعوا كيوم ولدتهم أمهاتهم ، أو أن سيئاتهم قد بدّلت إلى حسنات ، كلا ورب الكعبة ، إن هذا لعب بمفهوم الإسلام ، وتصور ساذج رخيص ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (المائدة:٢٧) ذهب ذلك الطاغية المجرم ، الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة ليؤدي العمرة ، وأخذ معه حراسته الخاصة ، التي تحرسه في الدنيا ولا تحرسه يوم القيامة ، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾(النحل:١١١) وشاءت إرادة الله أن يلتقي الحجاج مع رجل فقير زاهد من أهل اليمن ، كان يطوف حول البيت الحرام ، وبينما هو كذلك في طوافه ، إذ نشبت حربة من حراب جند الحجاج ، بثوب ذلك الرجل اليماني الفقير ، ثم وقعت على الحجاج ، عند ذلك فزع الحجاج ، وثارت ثائرته ، وبدأ يمارس شيئاً من ظلمه الذي تعود

عليه في حرم الله، فأمسك بذلك الرجل المسكين، وقال له: من أنت؟ قال: أنا مسلم من أهل اليمن، فقال الحجاج: وكيف تركت أخي عندكم، وقد كان أخوه محمد بن يوسف الثقفي والياً في بلاد اليمن، وكان غشوماً ظلوماً مثل أخيه الحجاج، فقال له: كيف تركت أخي عندكم، قال: تركته سميناً بطيناً، يأكل كثيراً، قال الحجاج: ما أسألك عن صحته، وإنما أسألك عن عدله، فقال ذلك الرجل: تركته غشوماً ظلوماً، لا يرقب في مؤمن إلّاً ولا ذمة، قال الحجاج: أما تدري أنه أخي، فقال: ومن أنت؟ قال: أنا الحجاج قال ذلك الرجل اليماني الفقير: بئس أنت وبئس أخوك، يا إلهي هذه كلمة خطيرة بالنسبة للحجاج، ولكن الله سلّم ذلك الرجل، وأفلته الحجاج من دون عقاب ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف: ٦٤) وكذلك من ظلمه وجبروته، أنه كان لا يستطيع أن يسمع لأحد يعارضه أو ينتقده في ظلمه، لكن الحسن البصري رحمه الله، استطاع أن يعارضه ويُشهّرَ به، فقال عنه: ذلك الغشوم الظلوم، يبطش بطش الجبارين، ويعظ وعظ الأبرار، ويلبس لباس الفسقة، حتى خشي عليه أحد السامعين فقال له: حسبك يا أبا سعيد، فقال: لا، لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه، ولمّا علم الحجاج بذلك، غضب غضباً شديداً، وأخذته العزة بالإثم، وأقسم بالله ليقتلنه، لأنه لا يريد أن يسمع صوتاً غير صوته، ولا يريد أن يسمع رأياً غير رأيه، لذلك أرسل إليه يريد أن يقتله أو يتخلص منه، ولما جاء إليه الحسن، ووصل إلى قصره، رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اجعل غضب الحجاج عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ثم دخل عليه، فلما رآه الحجاج، قذف الله الرعب في قلبه، ولذلك استقبله استقبالاً حسناً، وأكرمه وطيب لحيته،

ثم خرج من عنده بحفظ الله ورعايته ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (يوسف:٦٤) الحجاج بظلمه وجبروته كان لا يتورع عن قتل العلماء، وسفك الدماء، ولذلك قتل سعيد بن جبير، ذلك الصوّام القوّام، محدث الإسلام، وفقيه الأمة، كان الإمام أحمد -رحمه الله- إذا ذكر سعيد بن جبير، بكى وقال: سعيد بن جبير، قتله الحجاج وما أحد في المسلمين على الدنيا، إلّا وهو بحاجة إلى علمه، لكن الحجاج، قتله لأنه عارض رأيه، وقال له: أخطأت وظلمت، وأسأت، يا حجاج، فأمر جنوده أن يذهبوا إلى بيته ويأتون به حياً أو ميتاً، فأخذوه من بيته وقد لبس أكفانه، وتحنّط بثيابه، ولمّا وصل إلى أظلم رجل في التاريخ، قال سعيد بن جبير: السلام على من اتبع الهدى، وهي تحية موسى لفرعون، فقال الحجاج: ما اسمك؟ قال: اسمي سعيد بن جبير، قال الحجاج: بل أنت شقي بن كسير، قال سعيد: أمي أعلم إذ سمتني سعيد، فقال الحجاج: شقيت أنت وشقيت أمك، ثم قال له: ما رأيك فيّ، قال سعيد: ظالم تلقى الله بدماء المسلمين، فقال الحجاج: لماذا لا تضحك كما نضحك؟ قال سعيد: كلما تذكرت يوم يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ذهب الضحك عني، قال الحجاج: لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً من الناس فاختر لنفسك، قال سعيد: بل اختر لنفسك أنت، أيُّ قتلة تشاءها، فوالله لا تقتلني قتلة، إلّا قتلك الله بمثلها يوم القيامة، فقال الحجاج: أقتلوه ومزقوه، قال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، قال الحجاج: وجهوه إلى غير القبلة، فقال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله، قال الحجاج: إطرحوه أرضاً، فقال سعيد: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ (طه: ٥٥) ثم تبسم سعيد، فقال

الحجاج: أتضحك؟ ، قال: نعم ، أضحك من حلم الله عليك وجرأتك على الله ، ثم قتله الحجاج وهو يدعوا عليه ، اللهم لا تسلطه على أحد بعدي، فاستجاب الله دعوة عبده المظلوم ، سعيد بن جبير ، وما هي إلّا أيام أو شهور، حتى ظهرت في جسم الحجاج بثرة صغيرة ، فكان يخور منها كما يخور الثور ، ويقول: ما لي وسعيد ، ما لي وسعيد ، ثم يقول: والله ما نمت ليلة إلّا ورأيت كأني أسبح في أنهار من الدماء ، والله لقد رأيت أن الله عذبني بكل نفس قتلتها مرة واحدة ، إلّا سعيد بن جبير، فقد عذبني به سبعين مرة) لقد مات الحجاج ، وذهب أدراج الرياح ، وسوف يجتمعون عليه يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ (النحل: ١١١) يوم أن يقف الحجاج وحيداً فريداً ذليلاً، لا يملك جنوداً ، ولا حرساً، ولا خدماً ، ولا جواسيس ، يوم ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾(البقرة: ٢٨١).

إذًا: فليعتبر أولئك الظالمون الذين أمسكوا بزمام الأمور في هذه الأمة، فإنهم والله مسئولون عن تلكم المظالم والجرائم ، التي يرتكبونها في حق شعوبهم وأمتهم ، ولهذا فإن الرسول ﷺ دعى لهم وعليهم ، بقوله: (**اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً ، فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم فارفق به**) وقد بيَّن النبي ﷺ أن من احتجب عن الناس في الدنيا، احتجب الله عنه يوم القيامة ، كما قال ﷺ : (**من ولي شيئاً من أمر المسلمين، فاحتجب عنهم دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله عنه دون حاجته وخلّته وفقره**) .

دروس وعبر من ظلم الحجاج :

ولهذا يجب على هذه الأمة أن تأخذ من سير الظالمين دروسًا وعبر ، لقد كان في قصصهم عبرة وآية ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾(يوسف:١١١) ولهذا أبداً ، لم يكن حديثنا عن الظلم والظالمين حديثا يفترى ، أو حديثًا للتسلية والترفيه ، بل كان حديثا نافعاً ، وذكرى للبشر ، إن هذا الحديث عن الظلم والظالمين ، يحمل بين طياته كثيراً من الدروس والعبر ، والدرر والحكم ، ولذلك أول درس نستفيده من هذه العبر:

حقيقة الدنيا: وأن فيها غالب ومغلوب ، وظالم ومظلوم ، وكم عاش فيها أولئك الظالمون ، الذين سقطوا فيها ، وماتوا وهم خاسرون ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾(آل عمران :١١٧) لقد رأينا أيها الناس، كثيرًا من الظالمين عاشوا فيها ، لكنهم رسبوا في أول امتحان يمتحنون فيه ، فأحدهم يقول : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠) ، والآخر ينادي: يا فلان ، إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً ، فأكلت أموال الناس ، وأخذت حقوقهم ، انظروا إلى فرعون، أكبر ظالم في التاريخ ، عندما لعبت به الأمواج ، أخذ يبكي وينادي: من ينقذني بعد قوتي وجبروتي؟ ، فكان الجواب من الله رب العالمين ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(يونس : ٩٢) .

كذلك من الدروس والعبر التي رويناها لكم في قصص الظالمين:

٢-إن أحدهم في آخر حياته يبكي ويقول: أصابتني دعوة الإمام أحمد ، مالي وللإمام أحمد ، مالي وللإمام أحمد ، ثم يقول: والله لو أن ذباباً وقع على نصف جسمي ، لكأنما وقعت عليه جبال الدنيا ، أما النصف الآخر ، فلو قُرّض بالمقاريض ما أحسست به ، وسمعنا عن ظالم آخر : كان يتعرض للجواري والفتيات في شوارع الكوفة ، ويغمزهن ويقول: شيخ مفتون، أصابتني دعوة سعد ، ولهذا يجب أن ندرس هذه الأمثلة ، بإخراج ما فيها من الفوائد والعبر، لأن الظلم قد انتشر في بلاد المسلمين وديارهم ، واستفحل أمره في واقع الأمة ، وعليه نأمل أن يتدارك المنصفون والعقلاء، هذه الأوضاع المأساوية التي يعيشها المسلمون اليوم من الظلم والبغي والعدوان ، لأن الله عز وجل إذا أخذ العباد بظلمهم فإن أخذه أليم شديد، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (هود : ١٠٢)

كذلك من الدروس والعبر التي تخص حياة الظالمين:

٣- إن ظلم الحكام اليوم أشد من ظلم الحجاج في عصره ، فلو أن الحجاج قتل من العلماء سعيد بن جبير ، فالآن لا يتورعون عن قتلهم وتعذيبهم في سجونهم ، وكم يا لله في سجون الطغاة من مظلومين ، أُخذوا من ديارهم وأوطانهم ، ومن بين أطفالهم عنوة ، فلا ندري بأي ذنب أُخذوا، إلّا أنهم قالوا: نحن مسلمين ، كان الحجاج ، يقتل الناس ، لكنه كان أميناً على ديارهم وأعراضهم ومقدساتهم ، ولم يتنازل يوماً ما عن شبر واحد من أرض المسلمين ، وقد بلغت الفتوحات في عصره الآفاق ، أما اليوم

فذلة وهوان وحرب على الإسلام ، يستعرضون عضلاتهم وقواتهم في داخل شعوبهم وأمتهم ، وفي المعارك يدسّون أنوفهم في التراب ، أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة ، يا ليت شعري: بماذا ينطق الوجه الكئيب ، مقدساتي اليوم في العراق وفي فلسطين ، قد ألغي كرامتها الغريب ، لقد كان الحجاج سفاك سفاح ، لكنه أبداً لم يكن عميلاً أو خائناً لدينه وأمته أو وطنه ، بل كان يحافظ على بلاد المسلمين وأعراضهم ومقدساتهم ، لقد كان الحجاج يسفك الدماء ، لكنه مع ذلك ، لم يكن بينه وبين أعدائه ولاءات أو علاقات مشبوهة ، ولم يشترك معهم في معاهدات أو استسلامات ، بل أعلن ولائه للإسلام ، ديناً وعقيدة ومنهجاً ، فليس بيننا وبينهم ولاءات أو علاقات أو مودات ، لأن المسألة في صميمها مسألة دين وعقيدة ، ولذلك جاء الأمر واضحاً من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ، حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾(المائدة: ٥٧).